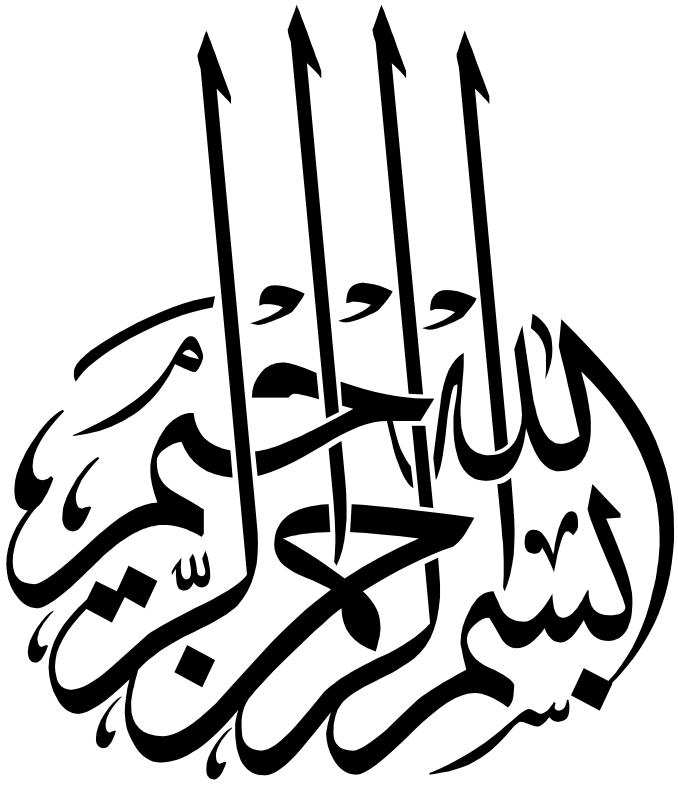
بسم الله الرحمن الرحيم

شرح كتاب

الفتن وأشراط الساعة

من صحيح مسلم

◈◈◈

باب في الآيات التي تكون قبل الساعة:

الدخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا زلنا في درسنا مع ما أورده الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في أشراط الساعة، حيث اطَّلع النبي -صلى الله عليه وسلم- على قومٍ من أصحابه يتذاكرون؛ فقال: «ما تَذكرون؟»، وفي رواية: «ما تَذاكرون؟» قالوا: نذكر الساعة، قال صلى الله عليه وسلم: «إنها لن تقوم حتى تَرَون قبلها عشر آيات؛ فذكر: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تَطرُد الناس إلى محشرهم».

وقد تكلمنا عن مقدِّمات هذا الحديث في مجلس الأمس. واليوم -إن شاء الله عز وجل- نتكلم عما يتيسّر من الآيات التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم.

فأوّل آية ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: الدخان.

والدخان: دخانٌ واضحٌ يَعُمُّ الناس جميعًا، فيراه الناس جميعًا، دخانًا يغشاهم، وهو كما في قول الله -تعالى-: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الدخان: ١٠ - ١١].

وقد اختلف علماؤنا من السلف والخلف في الدخان الذي يعمّ الناس؛ هل سبق ووقع ومضى أم أنه لا زال وسيقع في آخر الزمان؟

فذهب ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتبعه بعض العلماء واختاره ابن جرير الطبري شيخ المفسرين إلى أنّ الدخان قد وقع وسبق ومضى؛ وذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فعن مسروق قال: "دخلنا على عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا أيها الناس، من علم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم"؛ وهذه قاعدة أهل السنة والجماعة أنّ المسلم يقول بما علم، ويمسك عما لم يعلم، فلا يتخرَّص ولا يذكر شيئًا من عنده، فعندما قال الله عز وجل: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ

﴿ ۝٥ ﴾ [طه: ٥]، قال أهل السنة والجماعة: الرحمن على العرش استوى كما نفهم من كلمة استوى؛ علا -سبحانه- واستقر وارتفع، من غير تكييفٍ ولا تشبيهٍ، ولكنهم قالوا لِما لا يعلمون: "الله أعلم"؛ فقالوا: "الكيف مجهول"، الله لم يُعلِمنا كيف استوى؛ فنكِلُ العلم إلى الله.

كذلك في أشراط الساعة؛ لا يَتخرَّص المسلم فيقول: إنّ الساعة ستقوم في السنة الفلانية! يا أمة محمد، النداء الأخير! فهذا من التخرُّص، وإنما يقول المسلم في أشراط الساعة ما عَلِمَ؛ فيَعُدّ الأشراط، ويُبيِّن الأحوال، أمّا ما لم نُعْلَم به لا في الكتاب ولا في السنة فلا يجوز أن نتخرَّص به، ولا يجوز أن ننزِّل الأشراط على الوقائع إلا بدليل، وإلا قلنا: الله أعلم.

فهذه قاعدة شريفة مُنيفة يضعها ابن مسعود -رحمه الله ورضي عنه- في أوّل كلامه؛ حيث قال: "مَن علم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإنّ من العلم أن يقول لِما لا يعلم: الله أعلم"، قال الله عز وجل لنبيِّه: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦ ﴾ [ص: ٨٦]، والقول بلا علم من التكلُّف.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "وسأحدّثكم عن الدخان، إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا قريشًا إلى الإسلام؛ فأبطؤوا عليه ولم يجيبوه، فقال: «اللهم أعنِّي عليهم بسبعٍ كسبع يوسف» أي يصيبهم القحط سبع سنين، "فأخذتهم سنة" أي قحط، "فَحَصَتْ كلَّ شيء" أي أكلت كلّ شيء "حتى أكلوا الميتة والجلود، حتى جعل الرجل يرى بينه وبين السماء دخانًا من الجوع"، من شدة الجوع أصبح الرجل إذا نظر يرى دخانًا، فهذا هو الدخان؛ قال الله عز وجل: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ ﴾، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فدعَوْا: ﴿ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ ﴾ [الدخان: ١٢ – ١٥]؛ قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أفيُكشَف العذاب يوم القيامة؟! قال: فكُشِف ثم عادوا في كفرهم؛ فأخذهم الله يوم بدر؛ ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۚ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ﴾ [الدخان: ١٦] يعني يوم بدر.

وعند البخاري ومسلم أيضًا عن مسروق بيّن سبب كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: "كنا عند عبد الله جلوسًا، وهو مضطجعٌ بيننا، فأتاه رجلٌ فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنّ قاصًّا عند أبواب كِندة يَقصُّ ويزعم أنّ آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيأة الزكام، فقال عبد الله -وجلس وهو غضبان-: "يا أيها الناس، اتقوا الله! من علم منكم شيئًا فليقل، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم"، ثم ذكر ما ورد سابقًا.

إذن؛ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرى أنّ آية الدخان قد مضتْ في هذا الزمن.

وذهب بعض العلماء ومنهم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيما صح عنه وبعض العلماء من السلف والخلف إلى أنّ آية الدخان لم تقع وأنها ستقع في آخر الزمان.

ولا شك أيها الإخوة؛ أنّ آية الدخان العظمى التي هي علامة قيام الساعة لم تقع، وإنما ستقع بين يدي الساعة؛ بدليل هذا الحديث الذي معنا؛ فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم ذكرها بين يدي الساعة.

وجاء في حديث حذيفة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنّ من أشراط الساعة دخانًا؛ يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث في الأرض أربعين يومًا، فأمّا المؤمن فيصيب منه شِبْهَ الزكام، وأمّا الكافر فيكون بمنزلة السكران، يَخرج الدخان من أنفه وعينيه وأُذنَيه ودُبُره».

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "روى الطبري عن حذيفة -مرفوعًا- في خروج الآيات والدخان؛ قال حذيفة: "يا رسول الله، وما الدخان؟ فتَلا هذه الآية، قال: «أمّا المؤمن فيصيبه منه كهيأة الزكام، وأمّا الكافر فيخرج من مِنْخَرَيه وأذنَيه ودُبره»، قال الحافظ ابن حجر: "إسناده ضعيف".

وضعّف الحافظ ابن حجر كلَّ الأحاديث التي وردت في هذا المعنى، لكن قال عَقِبَ ذلك: "لكنَّ تظافر هذه الأحاديث يدلّ على أنّ لذلك أصلًا".

فنقول أيها الإخوة: إنّ الدخان ثابت، وإنه سيخرج في آخر الزمان، وأمّا هيأته ما رُوي من أحاديث مُشعِر بهذا لكن لا يُجزَم به؛ لأنّ الأحاديث لم تَثبُت بأسانيد صالحة حتى يُجزَم بالهيأة.

قال بعض العلماء -واختاره القرطبي-: "الذي يقتضيه النظر الصحيح؛ حَمْل ذلك على قضيَّتين مختلفتَين: فالذي ذكره ابن مسعود وقع وهو دخان خاص بقريش، والآية التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- ستقع بين يدي الساعة".

طيِّب؛ ابن مسعود قال: إنهم دعوا بأن يُكشَف عنهم العذاب، ويوم القيامة لا يُدعى ولا يُكشَف!

والجواب: أنّ هذا ليس في يوم القيامة؛ وإنما من مقدمات يوم القيامة؛ في أشراط الساعة، فلا يَبْعُد أن يدعوا الناس إذ ذاك؛ فيكشف الله عنهم العذاب؛ لكنهم لا يَفون بعهدهم.

وقول ابن مسعود رضي الله عنه -كما تلحظون- من قوله، لم يُسنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم.